محمد نعيم فرحات
أستاذ مشارك في علم الاجتماع- فلسطين
mfarhat2004@yahoo.com

Received: 5/1/2024
Revised: 6/1/2024
Accepted: 11/1/2024
Published:25/1/2024

ثقافات تلقي بأثقالها في حقل التاريخ: عن الصراع في فلسطين وعليها

يمثل الصراع الدائر بشأن فلسطين أعقد صراع يشهده التاريخ المعاصر على الأقل، سواء من حيث خلفياته أو تداعياته وأثاره أو تشابكه أو تعدد أطرافه والمنخرطين فيه والمعنيين به.
وإذ ينقضي قرن من الزمن ويبدأ آخر، فما زالت دراما صراع شامل تتواصل بين الفلسطينيين والعرب وامتداداتهم من جهة، وإسرائيل وحلفائها من جهة أخرى، حول معنى وماض وراهن ومستقبل وتاريخ وجغرافية مكان واحد والأحقية فيه، صراع تدور رحاه بين الحقيقة الفلسطينية التي انكسرت عام 1948لكنها لم تهزم، في مجابهة رواية إسرائيل التي تحققت لكنها لم تعرف، لا الرسوخ النهائي ولا الاستقرار، وعلى مدار العقود الأخيرة تعيش في كنف ضائقة وجودية متفاقمة.

في هذه الدراما تقيم الميثولوجيات بقوة تلحظ على سطح إيديولوجيات متحفزة وفي أعماقها السحيقة أيضا، إيديولوجيات ضاقت بها الأرض والتاريخ فبحثت عن تأويل للسماء وصناعة سند لها هناك، كي تشرعَ وتُباركَ وتُساندَ ما يفعله بشر ببشر على الأرض، أبدت حتى اللحظة طاقات جبارة، في عملها الشاق والدءوب لإعادة تشكيل "الزمن والتاريخ[1]" بالفعل وبالخطاب .وعلى بسيطها المعقد تشتبك الرموز والقيم والتصورات والأحقيات والقوى في صراع مُركب بين إرادات ومصالح وحقوق وغرائز وأوهام، لم يعوزها في كل الأزمنة، وجود قوى تحولها إلى عقائد وثقافات وتضحيات.

منذ البدء، أنبنى الصراع على فلسطين ومعناها، في فكر إسرائيل وشركائها كما في الممارسة، على مبدأ الإنكار والإقصاء الشاملين .وقد طال هذا المبدا وجود البشر حتى في مستوياته

ثقافات تلقي بأثقالها في حقل التاريخ: عن الصراع في فلسطين وعليها، مجلة ابن رشد للدراسات، العدد (1)، المجلد (1)، 2024. https://ibn-rushed.com/

-5-

الفيزيقية لمرحلة على الأقل[2] وليس التاريخية والثقافية والسياسية فقط، وقد تعاطت الثقافات والاستراتيجيات المتصارعة مع هذا الإنكار، كشرط بنيوي لتحقيق ألذات، وأضفت عليه طابعا عقائديا مكثفا.

بعد عقود من المواجهات، كانت الخلفية التي تحكم الموقف من الآخر، وعند طرفي الصراع كليهما (الإسرائيليون وحلفائهم) و(الفلسطينيون وامتداداتهم) مع فوارق حاسمة في الأحقية بين الطرفين لا زال ثقافيا في العمق هو كذلك، رغم أن التاريخ يبين بالملموس، بأن تطرف الحركة الصهيونية إزاء الفلسطينيين كآخر صار ضحية لها، كان يتجاوز الواقع والعقل والقدرة معا، بدليل أن إنكارهم لم يلغيهم من التاريخ .وقد استدعى هذا الأمر من الفلسطينيين بدورهم وإبان بلوغهم ذروة الانكسار، لإنكار وجود الآخر /الخصم نفسه الذي أنكرهم، وليس مشروعيته فحسب، ورفعوا الإقرار والاعتراف به لعقود إلى مرتبة الحرام التاريخي والأخلاقي والديني والسياسي .وقد جرى ذلك في خضم بناء موقف من إسرائيل كخصم، يضعها نقيضا للحق وللتاريخ وللعقيدة وللثقافة وضرورات الوجود والتحقق والمصالح معا .غير أن التطرف بخصوص الموقف من الآخر عند الفلسطينيين من جهتهم، كما عند الإسرائيليين من طرفهم، وإن أختلفت سياقاته وخلفياته وتعبيراته، قد واجه بعد سلسلة من الأحداث والوقائع والكوارث السياسية حقيقية وجود الآخر في الواقع، وهي مسألة يقع التعامل معها وتدبرها بشكل مختلف من طرف البنى السياسية للجانبين :الفلسطيني والإسرائيلي.

-2-

الجماعة الفلسطينية تجاوزت اللحظة التاريخية التي تضمنت إمكانية اندثارها وغيابها، واستمرت في التعبير عن نفسها كحقيقة راسخة رغم إقصائها عن المكان، فيما كانت إسرائيل تتشكل كحقيقة قائمة قوية وإن كانت غير مشروعة، وغير قابلة موضوعيا للاستقرار، لكنها سعت بشتى السبل لتجذير نفسها في الزمان والمكان والوعي.

تواصل الاشتباك صُعداً بين كلا الحقيقتين على مدار العقود الماضية، أجبر كلا الواعيين السياسيين (الإسرائيلي والفلسطيني) على التقهقر الصعب نحو حيز الإقرار بوجود الآخر كحقيقة قائمة بغض

النظر مؤقتا عن مشروعيته .بيد أن هذا الإقرار، جرى على نحو قلق ومرتبك في المستوى السياسي أساسا، ولم يتطور نحو وجود إقرار وقبول ثقافي عند كلا الجانبين معا.

هذا المتغير الهام و(المقصود الإقرار بوجود الأخر وليس الإقرار بمشروعيته بالضرورة) الذي أنتجته مفاعيل الصراع الشامل ومعطياته، وتدخلت في صياغته بقوة كيفيات تصرف كلا الطرفين، إزاء الحصار القائم أو المبني أو المحتمل يدين بالأساس لعودة الفلسطيني وحضوره في مسرح الواقع، قادما من مجالات المنافي والإقصاء والإنكار مبنيا في ثناياها .وفي ميادين الصراع وليس في أي مكان آخر، كان الخصمان يتبادلان العثور على بعضيهما البعض.

وبفعل هذا المتغير، صار"إقصاء الآخر "عند الطرفين كل في نحوه، يتحول رغما عنهما وبالقوة وإن على نحو مشوه ومشوش :من شرط بنيوي عقيدي لتحقيق الذات، إلى عامل بنيوي أساسي في إعادة صياغة الذات والموقف من الآخر واحتمالات التاريخ والأقدار. (3)

وبغض النظر عن المدى الذي سيقطعه هذا التحول تجاه الثقافات والعقائد لحثها على التكيف معه أو إستنفارها لتعميق الرفض، إلا أنه يمفصل الطرفين المتصارعين حاليا في صميم بعضها البعض، رغما عن صرامة التصورات والثقافات والعقائد والمعطيات التي تحكمهما .وهذا البعد المثير -في مستوى ما-يجري استخلاصه من تجربة صراع دامية، كان كل طرف فيها ينظر إلى الآخر، إما : كمطلق شر لا تاريخي كما هو موقف إسرائيل من الفلسطينيين .أو كمطلق شر عدواني كما هو موقف الفلسطينيين ومحيطهم من إسرائيل .وإذا ما وقع التعامل معه بشكل متخيل وخلاق عند الغالب أولا وبالذات-إسرائيل-وهذا ما تغيب مؤشراته في الواقع على نحو فادح، ثم المغلوب إلى أجل مسمى-الفلسطينيون-وإن على نحو مختلف جوهريا عن الغالب، فان هذا المتغير يتوفر على فرصة لعقلنة أيديولوجيات جموحه.وبهذا المعنى فان الضحايا بالذات هم الذين يوفرون للإسرائيليين، أحدث إمكانية لقيامهم بإعادة إنتاج أنفسهم على أساس الاندماج في العالم والعيش فيه والتعايش معه، ولكن بمتطلبات لم يألفها وعيهم وثقافتهم أو تّصوراتهم الصارمة لأنفسهم؟؟،

غير أن هذه الفرضية، هي فرضية طوباوية وصعبة التحقق، كما تنطوي على إشكالية خطره، لأن العقلنة وتوجه الوعي الإسرائيلي نحو الاندماج في العالم، سيعني تحطيم الرؤية والمنطق الديني والتاريخي الذي بناه الإسرائيليون لذاتهم وألزموا أنفسهم والعالم به أيضا .وبالتالي فإنها تؤدي إلى تخلخل الثقافة والعقيدة والتصور من الداخل .لذلك، فإن هذا الأمر يتشكل كواحد من التحديات الكبرى التي تواجهها الثقافة الإسرائيلية الآن بدون أي مستوى من استجابة الوعي له، وظلت على حالها كتجربة خصبة في تحويل الانكسار أو الانزواء أو التراجع لدهاء مركب، كان يفضي بها للمحافظة على البقاء داخل الحصار الذهني والفعلي في " الغيتو" من جهة، وتحقيق حضور حيوي في مرحلة تالية كما في حالة بناء دولة إسرائيل كغيتو مكثف من جهة أخرى، وهي في نفس الوقت ثقافة من الصعب عليها، وليس من طبيعتها أن تكون انتحارية.
لكن عدم وجود استعداد إسرائيلي للتراجع عن رواسب وأوهام الثقافة ومعتقدات القوة، نحو فكرة إعادة إنتاج الذات على قاعدة التعايش والاندماج في العالم وفقا لشروط لم تألفها، يضعها في دائرة خيارات صعبة وخطرة وجوديا تكاد تكون انتحارية بصورة أو بأخرى، بسبب من تواصل تحكم الإيديولوجيا والثقافة في الخيارات السياسية، وهنا تبدو إسرائيل وكأنها تواجه افقاً من الاحتمالات التي تتوالد وتتشابك وتتصاعد وتتشكل على هيئة مأزق طاحن ليس له حلٌ سياسيٌ إلا بتغير جوهري يتعين أن يحصل في حقل الثقافة.

مفارقات الواقع القائم واحتمالات تطوره، لا تشير إلى أن الثقافة الإسرائيلية تتجه نحو تجنب الخلخلة والتفكك والمخاطر الوجودية التي تواجهها في المستوى السياسي، عبر انتهاج مقاربات وتوجهات وممارسات مختلفة ومتباينة مع ما اختارته أيديولوجيا وثقافيا حتى الآن، وان تكف عن الرهانات غير الممكنة بحكم خبرتها بالواقع وبأفاق تطوره، بشكل يجعل من مثل هكذا فرضية إمكانية عقلانية ضمن حدود معينة، وهنا يمكن أن يلحظ المعنيون ويراقبوا، كيف تقوم الاعتبارات الإيديولوجية والثقافية ورواسبها الصلبة بتخريب الممكنات السياسية لإسرائيل كدولة وكتجربة لا تشبه كل التجارب.

وبالرغم من أن الوعي الجمعي الإسرائيلي يستشعر في أعماقه حجم المخاطر التي يقف في مواجهتها، إلا أنه يتفادى بنجاح مُهلكٌ-حتى الآن-ما تمليه من متطلبات عقلانية، وفي صلب هذا

-8-

الوضع، يُعيد منطق المفارقة المصيرية إنتاج نفسه بصورة مُقلقة في حياة إسرائيل .حيث صار هذا المنطق بعد عقود من نجاحات سياسية مرموقة وجها لوجه مع أزماته البنيوية ومع ما أحدثه الاحتلال من ردود وآثار ومضاعفات ومفاعيل عند من غلبهم، وبالتحديد بأثر عودة الفلسطيني لحقل التاريخ "التي حولت الأسئلة إلى مصير، بعد أن كان غيابه بمثابة شرط حياة للآخر الخصم" . [4]

تأزم النسق الإيديولوجي والسياسي عند طرفي الصراع، كل في سياقه ونحوه، خصوصا في ظل غياب القدرة التاريخية على الحسم عندهما حتى الأن، زود الفاعلين السياسيين في مرحلة معينة بجرأة مساس المقدس الثقافي، وهي عملية جرت بكيفيات مختلفة ومتفاوتة .حيث اتخذت عند الجانب الإسرائيلي منحى إعادة إنتاج محسوبة ومتخيلة في عقد التسعينات، عندما تعامل هذا الوعي ببعض الخيال السياسي مع اكراهات الوجود والحضور الفلسطيني، بما ينطوي عليه هذا الوجود من قوة ذاتية وموضوعية قائمة أو محتملة، غير أن شوائب الوعي الإسرائيلي المستمدة من الثقافة وهواجسها وليس من السياسة ومتطلباتها -التي يفترض أن تكون عقلانية-قد أطاحت بهذه المقاربة في وقت مبكر جدا.
ويمثل حدث اغتيال "إسحاق رابين "رئيس وزراء إسرائيل[5] عام 1996م في ساحة ملوك إسرائيل بالذات، على يدي يهودي يعتقد بأنه قد نفذ ذلك باسم الرب، الذروة الرمزية للانتكاس المبكر للمقاربة السياسية لحل الصراع بتدخل رواسب الثقافة، التي يتموضع فيها حاليا بصورة متوترة وحادة تيار الأغلبية الحاكمة في إسرائيل.
أما عند الجانب الفلسطيني، فقد اتخذت هذه العملية، شكل انهدام مشوش للوعي والممارسات معا كان مكلفا رمزيا وثقافيا وسياسيا أيضا.

-3-

في سياق تحقيق الوجود والأهداف الكبرى للجماعات التي ترسمها العقائد والثقافات والمصالح والإرادات، تلعب مهارات وفنون إدارة الصراع وتوظيف عناصر القوة والضغط والدهاء واستثمارها من طرف النخب الإستراتيجية في أي جماعة، دورا أساسيا في توجيه الصراعات بين الجماعات وصياغة المنجزات والبلورات الممكنة للواقع بما يتلاءم مع أهدافها وخططها وتصوراتها،

وقد تفوقت إسرائيل بضمن ما تفوقت في هذا الجانب حتى أمد قريب مضى، قبل أن تشهد تدهورا ملحوظا في هذا المستوى، كما يتبدى ذلك من خلال مراقبة أشكال تعاطيها في السنوات الأخيرة مع ملفات ذات صبغة مصيرية.

غير أن عامل مهارة وفنون إدارة الصراع على أهميته، والذي يرتبط بإدارة المشكلات من وجهة نظر معينة تخص طرفا واحدا، ليس مشغولا بإيجاد حلول تكون مقبولة للآخرين، يواجه في مكان ما من تصاعد الصراع، بعيدا عن العقلانية والمنطق والحقوق الأصيلة، حالة تشبه تصلب الشرايين في الجسد، جراء خيارات خاطئة وبنتيجة لمفاعيل الظلم والقهر واستباحة الآخرين، وعدم إدراك الغالبين، أو بالأحرى عدم اعتراف وعيهم، بالتحولات المرئية التي تجرى علننا وعلى رؤوس الأشهاد عند المغلوبين.

عند هذه النقطة بالذات تتحول المهارة العالية في إدارة الصراع وخلفياتها السابقة كما ألفها الغالبون، لعنصر سلبي (عموما) لأنها تظل تشتغل بنفس الكيفية في حين أن الزمن ومعطياته تكون قد تغيرت وذهبت في اتجاهات أخرى لا يريد وعي الغالبين أن يعترف بها ، كما أن هذه الكفاءة لا تستطيع أن تشكل تعويضا عن غياب عناصر جوهرية مثل :الحق والإيمان والإرادة الخارقة، وأيضا توافق الخيارات مع منطق التاريخ ومقتضياته، وفي هذا المستوى يمكن العثور على أحد مظاهر ما يمكن وصفه بغباء القوة وعمى الخيال الذي قد يصيب الغالبين، والذي يشتغل كعنصر هدم داخلي لمشروعهم وفكرتهم، وهو أمر يزودنا التاريخ بأمثلة خصبة تدلل عليه، جرت في حياة أمم وجماعات ودول في الماضي والحاضر، وتمثل إسرائيل أحد أهم نماذجه المعاصرة.

وبتقليب هذا المعطى على وجوه عدة، فإن بمقدوره أن يضيء على مسألة بالغة الأهمية؛ تتعلق بكيفيات تصرف أبنية الوعي عند الجانبين مع عناصر القوة، ومدى الاختلاف القائم بينهما في هذا الخصوص، باعتبار ذلك مسألة ذات أصداء ثقافية تاريخية قوية، يكشف عنها المستوى السياسي بحساسية كبيرة من خلال التحولات الحاصلة عند الطرفين في هذا الصعيد.

فحص الصراع القائم في فلسطين وعليها وامتداداته من هذه الزاوية واستخراج نماذج تحليلية منه، يشير إلى أن النموذج الأكثر مقدرة وتخيلا للإنجاز قد كان إسرائيليا في العقود الأولى لقيامها، قبل أن يشهد ترديا ملحوظا في العقود الأخيرة .بينما كان النموذج الأقل عضوية والأكثر ارتباكا وقابلية للانكسار عربيا، قبل أن نرى نماذج مختلفة في السنوات الأخيرة، نشأت في صلب حالة الصراع القائم وبتأثير مفاعيلها وتداعياتها على غرار الحالة الذي يمثلها حزب الله، والحركات الفلسطينية الجديدة، وحركات أخرى تقوم في محيط فلسطين الحميم، وهي حالات ذات مغزى ملفت بلورت نماذج من نوع مختلف، تُعبرُ وتُشيرُ قي آن، لحصول تحولات بنيوية شديدة الأهمية عند المغلوبين وطريقة وعيهم وتعاطيهم مع الواقع، في نفس الوقت الذي باتت فيه معطياتها التي تتكاتف مع غيرها ، تلقي بتأثيراتها الملحوظة على الواقع القائم وفي احتمالاته المستقبلية؟؟؟.

وفي سياق تتبع تأثير الثقافات على ممكنات السياسة، فإن المقاربة السياسية لحل الصراع كما تمثلت في اتفاق أوسلو(6) باعتبارها أوسع محاولة جرت لحله، والتي انشغلت ببناء تسوية بعيدا عن إقرار وقبول العقائد والثقافات بها، وظلت تسوية تفتقد في الأساس إلى أصالة الاختيار من جهة، وتعاني من عواقب التعاطي الماكر وضعف الخيال الذي تمارسه الأطراف السياسية المعنية بها كل على نحوه من جهة أخرى، سنلاحظ بأن أهم أثارها قد تمثلت في دفع الثقافات المتصارعة لاستنفار راديكالياتها داخليا وضد الآخر معا، أكثر من أي شيء أخر.

فشل المقاربة السياسية للصراع نقل الاشتباك القائم بين طرفي الصراع لأعماق كل ثقافة منهما وليس ضد الثقافة الأخرى فقط، كما هو حاصل بالفعل عند الإسرائيليين والفلسطينيين كل في سياقه، وهذه لحظة منطقية، طالما أن الأمر لا يتعلق بإعادة إنتاج الغالب لثقافته وتصوراتها، على ضوء معطيات الواقع وضغوطاته، والإقرار الحقيقي بالآخر وبحقوقه والسعي لبناء تسوية مقبولة معه، توائم بين الحقوق والوجود والشرعيات، على فرض وجود صيغة إجرائية لمثل هذا الأمر.!!!!

-4-

في هذا المنحى، تطورت النظرة الإسرائيلية للفلسطينيين، سياسيا وفكريا من زاوية طرحهم، ليس كأخر قومي وديني وثقافي، تعرض لظلم تاريخي فادح حولهم لضحية مُستدامةٍ، أو آخر تبين أن له وجود وحقوق ومترتبات جرى إنكارها، بل كمشكلة داخلية من منظور "الأنا الإسرائيلي " وإشكاليات وجودها القلقة، وافتقادها للإحساس بالرسوخ في أعماقها، وهو أمر لم يكن بمقدور كل آليات القوة الموجودة بحوزة إسرائيل أن تقصيه أو تبدده؟؟.

هذه النظرة تستبدل منطق الإنكار "الذي يقوم في صلب نظرة إسرائيل إلى نفسها "كما يقول دافيد شبلر(7) بمنطق العزل والتفكيك، عندما تقر بوجود الفلسطيني كأخر من جهة، فيما تجرده من الحقوق المترتبة عن هذا الوجود، ومن "الأحلام والرموز التي عاد متخما بها"بعدما تصعدت بقوة النفي والاضطهاد من جهة أخرى .**و"الفلسطيني وفقا لهذا المنطق كائن لا يعادل نفسه أبدا".**

وبينما دافع الفاعل السياسي الإسرائيلي بدهاء وخيال واسع سياسيا في المرحلة التي مهدت لاتفاق أوسلو 1993وبعد إبرامه بقليل .عما هو أكثر جوهرية لإسرائيل ككيان، من خلال ما بدا تقهقراً في نظرته للفلسطيني نحو الاعتراف به كآخر، يمثل مشكلة داخلية تحمل تهديداتها الذاتية والموضوعية المرتبطة بمكانة فلسطين في محيطها العربي الإسلامي والإقليمي -وهي مكانة قابلة تحت شروط إرادية معينة ليست مستحيلة بكل حال، للتحول إلى قوة ملموسة في حقل التاريخ -إلا أن هذا الدهاء قد انتهى على نحو عقيم من الناحية الإستراتيجية، نظرا لاستحضار العقلية المهيمنة في إسرائيل ما يمكن وصفه برواسب الثقافة مثل :منطق القهر والإقصاء والاستبعاد والغطرسة والاستباحة والتفوق والأحقية المبنية على منطق القوة والتحايل وإيديولوجية الخوف من استحقاقات السلام، وهو ما أدى للإطاحة بفرص المقاربة السياسية العقلانية المفترضة لمشكلات الواقع وحلولها المقبولة على نحو أو آخر.

أما الفاعل السياسي الفلسطيني فقد عانى من اشتغال خطر للشوائب البنيوية في لحظة حرجة من تاريخه، تفاقم فيها الانفصال والانفصام بين السياسي والثقافي .كما افتقد للروح السياسية المتخيلة والبناءة، وتم استنزاف الوعي والقدرة في ممارسة تجريبية مُحبِطةٍ، وأعطى -هذا الفاعل -أحدث نماذجه السياسية وأخطرها، على أطروحة الإخفاق السياسي المقيمة في صلب عبقرية البقاء والحضور والفعل الفلسطيني الجماعي المقاوم.!!!!

وما دامت التسوية السياسية بعيدة عن قبول الثقافات والعقائد بها، وتعمل كعنصر استفزاز لها بأكثر مما تقوم بترويضها، كما أنها ليست في وارد صياغة وعي جديد حقيقي، يقبل بالآخر/الخصم وحقوقه ومشروعيته أيضا، فان مقاربتها القائمة تعيد إنتاج الصراع ودواعي تفاقمه على نحو أكثر شدة وعنفا، كما أنها مقاربة تعيش أهم اختباراتها أمام قوة ثقافات وعقائد ترى مطلق التسوية أمرا مؤقتا فيما لو حصل وطال، وليست اختيارا أزلياً، وتغض الطرف عنها بدهاء ويقظة تحت ضغط العوامل السياسية واحتياجات الإستراتيجية البعيدة .إنها ثقافات وعقائد ذات تاريخ خصب من التدخل على نحو جبار، لإعادة تشكيل السياسي والتاريخي والجغرافي والرمزي معا، بعد جهد دءوب وصبور وطويل المدى كانت تبذله وتبديه .وتاريخها وتاريخ الشرق الأوسط ككل لهو حصيلة لتدخلات من هذا القبيل . تدخلات لثقافات وعقائد يستحيل إحالتها على التقاعد أو إلى الهوامش، ولم تتعود الامتثال للوقائع العنيدة وإعادة إنتاج نفسها على أساس القبول بآخرها القومي أو الديني إلا عنوة، وهي عنوة كانت تفضي في محصلتها عموما إلى رفض أشد . !!!

ورغم أن فكرة التسوية والحل الوسط، قد شكلت مجالا لخطاب جذاب تطاول بطول الصراع، فان تصور صيغة إجرائية مقبولة لها ثقافيا وعقائديا وتاريخيا وحتى جغرافيا وسياسيا وإجرائيا هي محل شك عميق على الأقل، لأن سؤال التعايش التعاقدي الأبدي سؤال صعب لكلا الواعيين :الإسرائيلي والفلسطيني –العربي معا، ليس لأن الذاكرة القريبة مبنية على العداء والكراهية والدماء وأثقالها فقط؛ بل لأن توافق مطلق العقيدة والثقافة والبقاء مع الحقوق من منظوريهما معا وتجسيد ذلك في فلسطين كأرض وكمعنى وكرمز، هو أمر بالغ الصعوبة، ويستوجب تقهقر الطرفين نحو منطقة اتفاق حقيقية

فريدة، تبدو بعيدة المنال وفاقدة لشروط تحققها حتى الآن وفيما بعد كما تقول المواقف المعلنة للثقافة عند الجانبين.

غير أن العقود الأخيرة قد أشارت لوجود تقهقر ما، وزعزعة كبيرة يتعرض لها حلما الغالب والمغلوب في المستوى السياسي تحديدا .وهو ما حث الثقافات على إعادة بناء أحلامها وتدخلاتها من جديد وسط إحساسها بالتخوف من مقاربات السياسة، وهنا كانت مفارقة التسوية السياسية للصراع بصيغتها الحالية تتجلى في قدرتها على تشييد بنية تحتية، توفر حوافز تعبوية هائلة لتكوين الراديكاليات الجديدة وهو ما يحصل بالفعل عند كلا الطرفين كل في نحوه .راديكالية تنقل الصراع نحو الذرى من جديد، وتعيد المكانة المرموقة للخطاب الذي يمجد تسوية واحدة، تلك التي يمكن أن تقوم بين الحق والعدل والتاريخ والعقيدة والجغرافيا والبشر والرؤى والتطلعات من وجهة نظر كل طرف، وبهذا فان أفق "الاغتنام السياسي "وهو الوصف الأكثر دلالة لمقاربة التسوية في الشرق الأوسط، ورغم أنها تحولت لواقعة تاريخية لهي مهددة بالخلفيات الثقافية التي تحكم أطرافها، مثلما هي مهددة بمضمونها وبمخرجاتها القائمة والمحتملة، وبالعوامل الحاكمة لها وماهيتها وإمكانيات استقرارها وتواصلها معا، وبغياب القناعة والإيمان بها عند أطرافها المباشرة بالتحديد؟؟؟.

وما بين الفلسطينيين كحقيقة راسخة قوية لها شرعيتها التاريخية والروحية، عازها التعبير السياسي المناسب والمتراكم عن نفسها بشكل يضاهي رسوخها ويجسده في الزمان والمكان .و"إسرائيل " كحقيقة قائمة قوية ولكن يعوزها رسوخ لم تستطع أن تجلبه القوة والتفوق والادعاء والإقصاء والاستباحة وتاريخ من إيقاع الانكسار بالآخرين، جرت في العقود الأخيرة مساومة مثيرة، تقوم على مبادلة ترسيخ إسرائيل مقابل صيغة سياسية ملتبسة للحقيقة الفلسطينية .وهي مساومة خضعت في أدق تفاصيلها للحد الأقصى الذي يمكن أن تذهب إليه إسرائيل في رؤيتها للفلسطيني كمشكلة للأنا الإسرائيلي .أما طريقة التعاطي السياسي الفلسطيني مع عناصر قوة ذاتية موضوعية، فهي لم تشتغل على نحو مرهف وبناء سياسيا، ولا تعمل بطاقتها الحيوية الممكنة، مما ترتب عنه تفقير هذه المساومة أكثر فأكثر، وتحولت لمصدر يعيد انتاج المشكلات الأساسية للصراع بدل حلها

-14-

وفي ضوء عدم قدرة كلا الحقيقتين عن إنجاز التسوية الحاسمة بين الحق والرؤى[8] وهو أمر له آفاق مختلفة ومتباينة عندهما-جرى توسط مساومة قلقة بين الواقع القائم ومفهوم ملتبس وغير متفق عليه للحق عند طرفي الصراع والمعنيين به. وهي مساومة يصوغها فهم فج لموازين القوى، عكسته المقاربة السياسية التي قامت على "انعدام التناظر في علاقات القوى بين الطرفين .[9]"كما أنها مقاربة تنوء تحت ضغط بحث كل طرف عن أقداره السياسية وسط مسرح صعب ومعقد على نحو يتفاقم . وتتحكم فيه احتياجات واكراهات وغرائز بدائية ودهاء قوة بلا أفق أو بصيرة (كما هو حال إسرائيل) وإخفاق البقاء الراسخ في التعبير عن نفسه سياسيا (كما هو حال الفلسطينيين حتى الآن)، وجميعها عناصر متغيرة وليس بالمقدور ضمان تواصلها كما هي إلى الأبد .لذلك فإن التصنيف المناسب لعملية التسوية العاثرة القائمة منذ ثلاثة عقود هو أنها لحظة فشل سياسي في مسار صراع يتواصل له عواقبه الثقافية العميقة عند كلا الجانبين وحلفائهم وامتداداتهم.

-5-

طالما أن القدرات الاستراتيجية التي لدى أطراف الصراع (وتحديدا الطرف الفلسطيني وامتداداته) والمنخرطين فيه والمعنيين به، لم تجلس بعد إلى مائدة الحلول بكامل عدتها وتطلعاتها وتعبيراتها وقواها وفعلها، فان الشرق الأوسط "سيظل تلك البلاد التي تشهد بشيء من التكرار حروبا من أجل البقاء الوطني (...)وان استمرار المقاومة المحلية فيه، سواء كانت دينية أو غيرها لتسوية 1922، وللأفكار الأساسية التي قامت على أساسها، تفسر لنا الخاصية التي تميز المنطقة، وهي أنه لا وجود في الشرق الأوسط للإحساس بالشرعية، ولا وجود لاتفاق على قواعد اللعبة، وليس فيه إيمان مشترك يشارك فيه الجميع.[10]"

وداخل صراع تشكل فلسطين بمعناها الفريد وبدلالاتها المختلفة جوهره وحقله ومجاله، فان التسوية تبدو وهما باستعارة المعنى الفيبري للتسوية "ليس لأنه لا يمكن تبرير الخط الوسط أكثر من تبرير موقف متطرف، وإنما لأن هذا الحل والخط هو عموما وكر التباسات" [11] إن هذا هو واقع حال ما

يشهده الشرق الأوسط، وطالما كانت الحلول المعتمدة فيه تجري بضغط عمل القوة وبعيدا عن مفهوم للعدل يتوافق عليه جميع المعنيين، فسوف يظل مكانا لولادة الحروب وليس أرضا للتسويات التاريخية.

وفي حين خطى الفلسطينيون بتعثر وارتباك وبدون خيال سياسي مناسب، نحو التجسيد في جغرافيا ممزقة ومخترقة بالأخر الخصم، ووصل وعيهم لمحطات تجنبوها في صعب مسيرهم، فان الإسرائيليين أيضا لم يدركوا بعد "زمنا تنشأ فيه محاولة لفهم الآخر القومي والديني وفي الآن نفسه، نقد جوانب معينة وعميقة وهامة في تاريخ الجماعة التي ينتمي إليها الإنسان؛ أي :عندما يصبح التاريخ مناقشة بلا نهاية كما يقول (بيتر غايل) وليس استمرارا للحروب بأدوات تاريخية، ويتحول إلى إحدى أقوى وسائل النزعة الإنسانية، والتربية الذاتية ..."لذلك، وكما يواصل القول إسرائيل شاحاك "تعيد الأنظمة الاستبدادية كتابة التاريخ، أو تعاقب المؤرخين، ولكن عندما يحاول مجتمع بأكمله العودة إلى الاستبداد، يكتب تاريخ استبدادي، ليس بفعل إكراه من أعلى، ولكن بسبب ضغط من أسفل، وهو أكثر فاعلية .وهذا ما حدث للتاريخ اليهودي في إسرائيل الحديثة، وهو ما يمثل المشكلة الأولى التي نحتاج للتغلب عليها[12]" عند جماعة حولت الأسطورة إلى وطن "وهو ما سيبقى يهدد جوهر إسرائيل إلى الأبد "كما يقول جان جينيه، ويسير بها وبالآخرين قدما نحو الخيارات الصعبة هناك: حيث الانتصارات القلقة والانكسارات الموعودة.

بضوء كل هذه العوامل وما تلقيه من أثقال في الواقع سيظل الصراع في الشرق الأوسط مثالا وحقلا خصبا لمفارقة تراجيديا ما يسميه بيتر زوندي وشينلغ ب"ثمن تمازج الحرية والضرورة"، الذي يقضي بأن "يكون الظافر خاسرا في الآوان ذاته، والخاسر ظافرا في الوقت عينه[13]" وهي تراجيديا لا زالت قيد التواصل :حيث نجد فكرة قد تحولت إلى حقيقة كما هو واقع إسرائيل، وحقيقة تحولت إلى فكرة ثم عادت تبحث في نحو شاق عن تجسيد ذاتها كما هو واقع فلسطين والفلسطينيين، وفي عود الأشياء الأزلي إلى أصولها، ثمة لحظات قاسية أو فريدة أو غامضة أو مشوهة، وفي لحظة من هذه اللحظات أو أكثر يمر الصراع في الشرق الأوسط حيث تتصادم فكرتان لا تلتقيان، ولا يوجد مجال حقيقي لعيشهما معا .وليس هناك إرادة فعلية لتجربة ذلك، ما لم يحصل تحول جذري وحاسم في هذا الاتجاه داخل الثقافات المتصارعة، وهو أمر مستبعد وصعب التحقق عل كل حال ؟؟.!!

في هذا المسار فان الزعزعة والتفكك تهدد الرؤى والشرعيات والأحلام والقوى القائمة والاستراتيجيات وحتى الجغرافيات السياسية التي تشكل الشرق الأوسط الراهن، الأمر الذي يشكل بيئة مناسبة لأطراف الصراع الحقيقيين للتوجه نحو إعادة إنتاج معقدة لرؤاهم ومعطياتهم، وهي عملية تتسم بنزوع شديد للثقافات بصورة أكثر التحاما مما عرفه الصراع حتى الآن، للتموضع داخل معتقداتها العميقة .وتجديد الرؤى الراديكالية المبنية على الرموز كما يتبناها ويؤمن بها كل طرف، وتحقيق تماثل عميق بين فهم كل طرف منهما للحقوق على أساس مقتضيات الثقافة أكثر من مقتضيات السياسة، وحشد ما يتطلبه ذلك من قوة وعدّة متنوعة.

وعند هذه النقطة فإن أطروحة الصهيونية لحل المسألة اليهودية عبر إقامة دولة إسرائيل وإنهاء المنفى في حياة اليهود، تواجه معضلة وتقف أمام مفارقة مصيرية كبرى .بينما تعيش الجماعة الفلسطينية التي انتفت(14) بنتيجة ذلك وتبلورت وتبلور وعيها في المنفى، ثم عادت منه إلى حقل التاريخ، إحدى أخطر أزماتها البنيوية منذ تاريخ نفيها حتى الآن، وفي ظل المشهد السياسي الراهن في الشرق الأوسط، فإن الشيء الأكثر حقيقية الذي يمكن لحظه ومعاينته بوضوح، هو بالضبط تلك المسافات المرئية وغير المرئية التي تقطعها الثقافات المتصارعة من خلال الحاملين التاريخين للجوانب الأكثر راديكالية فيها، نحو إعادة تشكيل الوعي والحلم والواقع، وهذا ما الأمر يقصي على نحو ملحوظ فرضية تحقيق اتفاق تاريخي مقبول بالنسبة لهما معا.

حرب غزة الأخيرة كذروة عالية يبلغها الصراع، التي أعادت طرح أسئلة فلسطين وكثفتها على نحو غير مسبوق، هي في أحد أهم ابعادها تعبير عن حيوية اشتعال الثقافات وتدخلها الكثيف عند طرفي الصراع وامتدادتهما، لإعادة تشكيل الواقع بعيدا عن مقاربات السياسات الفاشلة.

وطالما بقي الاحتلال يحكم فلسطين. وظل النفي والإقصاء والعزل واقعا يؤطر حياة الفلسطينيين ويحاصرهم، سيظل للثقافات المتصارعة وحامليها الدور الجوهري في تحديد أفاق الصراع وهوية الحلول السياسية المحتملة، التي ترتضيها الثقافات عند كلا الجانبين كل في نحوه.

إحالات وهوامش

[1] يتحدث جون برغز عن فكرة الالتحام العنيف بين الزمن والتاريخ ويقول ادوارد سعيد "تجربة الاستلاب "فصلية الكرمل، عدد3، بيروت (1983)بأن هذا ما جرى بالفعل في فلسطين .

[2] لزمن طويل منذ قيام إسرائيل، كان الخطاب الإسرائيلي ينكر الوجود الفيزيقي الفلسطيني وتاريخية هذا الوجود في فلسطين، وكرد فعل ظل الخطاب الفلسطيني لزمن طويل أيضا ينكر وجود إسرائيل وليس حقها في الوجود فقط . ويدلل الأمر على مدى التطرف الذي كان يصله الإنكار في الخطابات عند كلا الطرفين مع فوارق القدرة على ممارسة الإقصاء عندهما.

وينقل أنطون شلحت في مقالته "الأجداد يزدادون ضراوة"، مجلة فلسطين الثورة، عدد 778 نيقوسيا- قبرص 24/12/1989) عن الباحث الإسرائيلي بنيامين بيت هلحمي قوله إن "مشكلة الصهيونية والأزمات التي أفرزتها ولا تزال ترجع إلى جذر أساسي واحد، هو الفجوة الكبيرة بين الحلم الصهيوني وبين واقع البلاد التي جرى اختيارها لإخراج الحلم إلى حيز الوجود."

ويقول إن هذه الفجوة، كانت ماثلة أمام أصحاب ذلك الحلم، كما كان واضحا لهم أن تحقيقه مستحيل البتة، وأن النجاح في تحقيقه تبعا لذلك، يستلزم الحرب من ناحية، وارتكاب آثم بحق الشعب الآخر من ناحية أخرى.

ويعتبر الباحث الإسرائيلي أن خطيئة الصهيونية الأصلية كامنة في كونها تغاضت عن حقيقة وجود مئات الآلاف من العرب الفلسطينيين في البلاد التي اختارتها أرضا لمشروعه، وعلى هذه الخطيئة جرت بمنهجية عملية تأسيس تراث كامل شديد الوطأة من تجريم الضحية . واتهام الفلسطينيين بالإثم الفظيع الذي ارتكبته الصهيونية بحقهم، شكل ويشكل غطاء لجرائم الجلاد وشططه، ويشير إلى أن السقف الزمني لمشكلة الصهيونية هو قبل مئة عام، أي منذ نشوء الصهيونية.

[3] انعكست عودة الفلسطيني من المنفى والغياب داخل الخطابات الإسرائيلية وخصوصا الخطاب الأدبي والخطاب السياسي.ولئن اتخذ حضور الفلسطيني وضعا "مؤنسنا نوعا ما "في السنوات الأخيرة إلا أن هذه الأنسنة قد كانت قلقة ومرتبكة ومشوهة حتى وهي تقر بالفلسطيني كآخر. **إلا أن هذا الآخر لا يعادل نفسه أبدا.** وسوف تبقى عملية الإقرار بالآخر والاعتراف به عند الإسرائيليين ثم عند الفلسطينيين، من أكثر العمليات صعوبة وتشوها وعرضه لانقضاض التصورات النمطية المقولبة،

مدعومة بالتصورات المبنية من حقل الواقع بين خصمين .وتتخذ هذه المسألة بعدا أكثر تعقيدا في الوعي الإسرائيلي، نظرا لأنه الأكثر تركيبا وحساسية وصرامة في تصوراته للآخر ,عوضا عن أنه هو الذي أجبر الوعي الفلسطيني والعربي وأرغمه على أن يكون "آخره /العدو ."لقد جعل الخطاب والسلوك الإسرائيلي من هذا الوضع مصيرا .وكان على كل الأطراف وهي تدافع عن وجودها وأشكال تحققها أن تخوض صراع الوجود في المخيال والواقع بذات الحدة.

ومن بين الدراسات الهامة في هذا الخصوص يمكن الإحالة لدراسة مناحيم بيري :عن الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي كاستعارة في النثر القصصي الإسرائيلي الحديث"، مجلة الكرمل، عدد، 42 نيقوسيا-قبرص 1991)م) حيث يتعقب صور حضور الفلسطيني وتعقيداتها في خطاب يلعب دورا هاما في تشكيل الوعي الإسرائيلي وإثارة الأسئلة فيه.

[4] محمود درويش "في وصف حالتنا ,"الطبعة الأولى) بيروت،دار الكلمة، (1987ص .57-56 .

[5] يقول ليف غرينبرغ" :سلام مُتخيل، ترجمة جواد الجعبري (رام الله، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، 2007) ص. 575 "كان اغتيال رابين كافيا لشل الأصوات التي تطالب بالتوصل لمصالحة في المستقبل، كما كانت عملية الاغتيال بمثابة تلميح على خطر نشوب حرب أهلية"

[6] ليف غرينبرغ: م.س، ص. 572. ويذكر الكاتب هنا إلى أن "الاتفاق كان يحوي بداخله كل الألغام الممكنة "

[7] يشير دافيد شبلر، نيويورك تايمز20/2/1993 إلى موقف إسرائيلي ظل ثابتا في عمليات البحث عن الذات، وهذا الموقف هو الإجماع الإسرائيلي على طابع الوطنية الفلسطينية غير المشروع .ويقول بأن هذا ما يقوم في قلب نظرة إسرائيل إلى نفسها في المنطقة، ويعكس المحتوى الانفعالي للايدولوجيا الصهيونية .ويوضح ويثير اطراح أغلبية الإسرائيليين من كل لون، لفكرة أن الفلسطينيين هم أيضا شعب، مثقل بتاريخ ويواصل حلما خاص به.

[8] يقول محمود درويش "الكتابة في درجة الغليان "مجلة شؤون فلسطينية، عدد35، بيروت (1974) ص 39.ليس الصراع بين حدود حقين ...لان الحق لا يصارع حقا، وإذا كان أحد الطرفين حقا، فلا بد أن يكون الطرف الثاني باطلا.

[9]) ليف غرينبرغ: م.س، ص .571.

[10] دافيد فرومكين :سلام ما بعده سلام "ولادة الشرق الأوسط 1914-1922) ط1(لندن –قبرص، دار نجيب الريس للكتب والنشر،1992) ص. 633.

[11] جوليان فروند :سوسيولوجيات ماكس فيبر"ترجمة جورج أبى صالح(بيروت مركز الإنماء العربي، (د.ت)) ص 5. .

[12] إسرائيل شاحاك "الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود، فصلية بيادر، عدد6، دائرة الثقافة – منظمة التحرير الفلسطينية.(1991) ص. 133وتعزيزا لهذا السياق يقول الفيلسوف الإسرائيلي المعروف أشعيا ليبوفيتش، مجلة الكرمل، عدد 28(1990) "إن هرب اليهود إلى الماضي، إلى ما تكبدوه، مستغل بصورة منمقة، لإبعاد فكرهم عن جميع المشكلات وجميع الالتزامات .إن الرهيب في المحرقة أنها لا تشكل عبره ...إنها رعب لا فائدة منه".

وفي حقل دعوة النقد الذاتي على أساس دورها في تدعيم الذات الإسرائيلية وإعادة إنتاج وجودها في النحو الأكثر ضمانا وتواصلا وأمنا .يرى يهوشعفاط هركابي :قرارات مصيرية، الطبعة الأولى (دبي، مؤسسة البيان للصحافة والنشر، 1986) بأن إسرائيل ناقدة لنفسها، أكثر أمنا في المستقبل ويطرح النقد الذاتي "كضرورة لمواجهة الضائقة التي تواجهها إسرائل".

غير أنه يقول بأن خطورة النقد واستحقاقاته على صعيد تغير المواقف، تكمن في أنه يتطلب إهمال عادات تفكير، صارت جزءا من كيان الإسرائيلي وشخصيته.

ويبدي هركابي "تخوفه الكبير، مما يسميه نقطة الضعف الوجودي الإسرائيلية، التي لا تتيح مجالا كبيرا للانسحاب من الطريق الخاطئة .ويقول إن مستقبل إسرائيل مرتبط بالعقيدة قليلا وبالعقلية التي تسودها كثيرا ."غير أن السؤال يظل دائما إلى أي مدى يمكن للعقلية الإسرائيلية أن تتحرر من قيود العقيدة ؟؟

[13] نقلا عن كاظم جهاد "محمود درويش واحد عشر كوكبا، فصلية الكرمل، عدد 47 (1994) ص .187.

[14] تذهب بعض القراءات لاستحضار أطروحة اكتساب الفلسطينيين لخصائص يهودية في تجربة المنفى، في حين أن الأمر في الواقع يتعلق بقدرة ثقافات على المقاومة والمبادرة والفعل تحت ضغط التهديد الذي يمس الوجود وإمكانيات التحقيق .وإذا كان من المؤكد أن تجربة الصراع ومفارقاتها قد انطوت على تأثيرات متبادلة، خصوصا لدى الطرف الأضعف، فان دور الآخر كخصم، هنا قد كان

مهما وأساسيا في إعادة صياغة الذات والوعي والتمثلات، وهو أمر منطقي في صراع الجماعات، ولا يمكن تجريد الصراع هنا من وجود تأثيرات خلاقة له بالقوة، حيث يؤدي حضور الآخر كتهديد للأنا إلى استنفار القوى الفعالة فيها وحفزها على الاشتغال.

من جهة أخرى لا يتعين على هذه الأطروحة أن تغفل، الاختلاف الكبير في عناصر التكوين والصيرورات والعقائد والرؤى للذات والعالم، ومسارات التاريخ والتجارب والأدوار والطموحات ومشاريع التحقق بين الفلسطينيين والإسرائيليين، وهي عناصر تشتبك في مجابهة تاريخية ممتدة حاليا. وقد تناول هذه المسالة بحساسية حشد من المهتمين مثل :إدوارد سعيد وإبراهيم أبو لغد والياس صنبر وجان جينيه ومحمود درويش، حيث يقول في هذا الصدد "ليس صحيحا بأن المشروع الصهيوني قد خلق نقيضه الفلسطيني لأن هذا النقيض موجود قبل المشروع وهو الذي يعرقل صيرورته إلى ثبات ."